

التناسب في سورة القارعة

أحمد ناصر بن أحمد الرازحي *

جامعة الملك خالد - أمها (المملكة العربية السعودية)

alrazhi1@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2024 / 12 / 30	2024 / 06 / 10	2022 / 06 / 02

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ

يُعد التناسب أحد الأوجه البارزة للإعجاز القرآني، حيث تتناسق الألفاظ والمعاني والأصوات في القرآن بشكل بديع يخدم الهدف من النص القرآني ويعزز من تأثيره. التناسب البلاغي يعني انسجام وترابط الكلمات والجمل والأفكار بطريقة تعزز من فصاحة النص وبلاغته. وبتحليل أنواع التناسب في سورة القارعة توصلنا إلى أن هنالك تناسبا بيّنا، وترابطا محكما، وجليا في هذه السورة الكريمة، حيث أشار البحث إلى مظاهر ذلك التناسب من خلال دراسة السورة دراسة بلاغية أسلوبية وبيان ما فيها من تناسب، لفظي، ومعنوي، وصوتي مستشهدا بما يدل على ذلك من آيات السورة.

الكلمات المفتاحية: التناسب ، التشاكل ، سورة القارعة.

Abstract

Proportion is one of the prominent aspects of the Qur'anic miracle, as the words, meanings, and sounds in the Qur'an harmonize in a wonderful way that serves the purpose of the Qur'anic text and enhances its effect. Rhetorical proportion means the harmony and coherence of words, sentences, and ideas in a way that enhances the eloquence and eloquence of the text. By analyzing the types of proportionality in Surat Al-Qara'ah, we concluded that there is a clear proportionality, and a tight and clear connection in this noble surah, as the research pointed to the manifestations of that proportionality through studying the surah in a rhetorical and stylistic study and demonstrating the proportionality in it, verbal, moral, and phonetic, citing evidence that indicates This is based on the verses of the surah.

Key words: Proportion, similarity, Surat Al-Qaraa.

* أحمد ناصر بن أحمد الرازحي: alrazhi1@gmail.com

المقدمة

تتجلى عظمة القرآن الكريم في وجوه كثيرة من أهمها نظمها البديع، وتناسبه الرفيع، وما زال الدارسون يولون بلاغة القرآن الكريم عنايتهم، ويبدلون جهداً كبيراً في إبراز دلائل إعجازه، والوقوف عند أسرار نظمها، وعجائب تناسبها، ومن أبرز وجوه الإعجاز القرآني الكريم ما عُرف بالتناسب والتناسب كما "يقول برهان الدين إبراهيم البقاعي: "وعلم المناسبات -الأهم من مناسبات القرآن وغيره- علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبتها من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه، وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما افتضاه من الحال، وتتوقف الإجابة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو".⁽¹⁾

ويقول الزركشي (ت794هـ) "وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ عِلْمٌ شَرِيفٌ تُحْزَرُ بِهِ الْعُقُولُ وَيُعْرَفُ بِهِ قَدْرُ الْقَائِلِ فِيمَا يَقُولُ".⁽²⁾

ولأهمية هذا العلم اخترت دراسة التناسب دراسة بلاغية أسلوبية، في سورة القارعة، وتكمن أهمية البحث في معرفة أسرار تناسب سورة القارعة المعنوية، واللفظية، والصوتية.

1- مفهوم التناسب،

- لغة: التشاكل، تناسب الشيئان: تشاكلا⁽³⁾

1-2- واصطلاحاً: عند البيانين هو: "مبدأ بياني كبير يشمل العديد من أساليب البيان والكثير من فنون الصياغة اللفظية، ونظم المعاني، وهنالك من حصره في نوع واحد من أنواع البديع يتعلق بتناسب مقاطع الكلام المزدوج"⁽⁴⁾ ويقال له "مراعاة النظر: ومنه مراعاة النظر وتسمى التناسب والاتلاف والتوفيق أيضاً وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه"⁽⁵⁾

2- أنواعه

يتفرع علم التناسب إلى فروع كثيرة أهمها أربعة أنواع أبينها من خلال الجدول التالي:⁽⁶⁾

م	علم التناسب	مجال اهتمامه
1-	علم المناسبة	التناسب المعنوي بين الآيات
2-	علم توجيه متشابهات القرآن	التناسب اللفظي وتناسب سياق الآيات
3-	علم توجيه القراءات	التناسب الصوتي في طرق الأداء والقراءة والتناسب في نسق النظم
4-	علم الفواصل	التناسب بين الفواصل

3- جهود الباحثين المحدثين في علم التناسب

بذل عدد من الدارسين المحدثين جهوداً قيمة في علم التناسب إلا أنها تظل جهوداً متناثرة في ثنايا البحوث المتعلقة بالإعجاز لا تصل لمستوى الدراسة المتخصصة.

4- مجال البحث:

بعون الله وتوفيقه فقد وقع اختياري على سورة القارعة وهي قوله تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} * الْقَارِعَةُ {1} مَا الْقَارِعَةُ {2} وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعُفُوفِ {5} فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ {6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {7} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ {8} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ {9} وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةُ {10} نَارٍ حَامِيَةٍ {11}.

- التعريف بسورة القارعة موضوعها ومعانيها:

سُورَةُ "الْقَارِعَةِ" وَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِإِجْمَاعٍ. وَهِيَ عَشْرُ آيَاتٍ ⁽⁷⁾ "اتفقت المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة على تسمية هذه السورة) سورة القارعة (ولم يرو شيئا في تسميتها من كلام الصحابة، والتابعين، واتفقوا على أنها مكية. وعدت الثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة. وآياتها عشر في عد أهل المدينة وأهل مكة، وثمان في عد أهل الشام والبصرة، وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة" ⁽⁸⁾

ذكر فيها إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال، ثم ذكر الجزاء على الأعمال وأن أهل الأعمال الصالحة المعتمدة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم.

أما معانيها وتفسيرها {الْقَارِعَةُ} من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تفرق الناس وتزعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ} من شدة الفزع والهول، {كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون {كَالْعُفُوفِ} أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفا جدا، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} ثم بعد ذلك، تكون هباء منثورا، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} أي: رجحت حسناته على سيئاته {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} في جنات النعيم.

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته. {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}. وقيل: إن معنى ذلك، فأمدماغه هاوية في النار، أي: يلقي في النار على رأسه. {وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةُ} وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: {نَارٌ حَامِيَةٌ} أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفا. نستجير بالله منها. ⁽⁹⁾

5- أنواع التناسب

1-5- التناسب المعنوي

من أبرز مظاهر التناسب المعنوي في السورة: وحدة الموضوع والهدف، ومن مظاهر وحدة السورة نجد أن المعاني متسقة ومتراصة بشكل يجعل كل آية تبني على ما قبلها وتُتمد لما بعدها.

أ- التناسب المعنوي ووحدة السورة التناسب بين مطلع السورة وموضوعها ومنها:

- براعة الاستهلال

تتضح براعة الاستهلال في السورة بقوله تعالى القارعة ما القارعة؟ وهذا سؤال تلاه تأكيد لذلك السؤال (القَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ) أي الْقِيَامَةُ وَالسَّاعَةُ⁽¹⁰⁾ ففي ذكر القارعة مجردة إبهام، وكأن هذا الإبهام يستدعي سؤالاً فيأتي السؤال، ما القارعة؟ وكأن هذا السؤال لا جواب له، فتأتي الآية التالية لتدل على أن مفهوم كلمة القارعة المعروف ليس هو المقصود وإنما المقصود شيء آخر، اصطلاح آخر، ألا وهو ما بينته الآية التالية في قوله تعالى: يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5} وفي هذا حسن استهلال بديع لا ريب فيه 0

- تناسب الألفاظ فيما بينها في الآيات

1. تناسب كلمة القارعة مع كلمة المنفوش، حيث ذكرت القارعة في أول السورة " والقارعة من القرع وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفس لأن من طرائق نفس الصوف أن يقرع بالمقرعة" (11)
2. ناسب ذكر القارعة ذكر الفراش المبتوث في قوله تعالى: {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} القارعة 4؛ "لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر، ولم يحسن ذكر الفراش وحده كما لم يحسن ذكر العهن وحده" (12)
3. قال في سورة القارعة: الْقَارِعَةُ {1} مَا الْقَارِعَةُ {2} وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5} كرر تعالى ذكر القارعة، "وعظمها، وهولها، فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه كالعهن المنفوش" (13)

- وحدة الهدف

يتضح في السورة حيث أنها تحدثت عن القيامة، ووصف أحوال الناس فيها، ثم بينت النهاية الحتمية للمؤمنين وهي العيشة الراضية، والنهاية الحتمية للكافرين، وهي نار جهنم.

- التناسب بين مطلع السورة وختامها

بدأت السورة بذكر الْقَارِعَةُ {1} تلاه سؤال الْقَارِعَةُ {2} وبمثل العقد انتظمت بقية الآيات وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3}، تلاه الجواب يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4}، ثم عطف عليه وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5}، "لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: «الْقَارِعَةُ» بلا خبر ولا صفة. لتلقي بظلمها، وجرسها الإيحائي المدوي المرهوب! ثم أعقبها سؤال التهويل: «مَا الْقَارِعَةُ؟»، فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل!" (14) وهكذا يستمر النسق المترابط حتى نهاية السورة، وكل آية هي تنمة لما قبلها إلى أن تصل إلى آخر السورة.

وفي آخر السورة نلاحظ التناسب في تكرار السؤال ففي أولها قال تعالى (وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) وفي آخرها قال تعالى: (وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ) فالملاحظ أنها بدأت بالسؤال المراد به التهويل، والتعظيم من شأن القارعة وهي الساعة التي تقرر قلوب الناس بأهوالها وبين ما يحدث في تلك الساعة من عذاب النار المهول الذي يهوي فيه أصحاب، الذي يؤمه من لم يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر،

وليزيد الأمر تهويلاً وتفضيلاً يقول: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ) ثم اتماماً لمبدأ التناسب يقول مبيناً نوع هذا المستفهم عنه إنه (نَارٌ حَامِيَةٌ) وهنا يتضح التناسب بين مطلع السورة وختامها، فالسورة بدأت ببيان هول وفضاعة ذلك اليوم، وختم ببيان نوع ذلك العذاب الفظيع 0

ب- التناسب المعنوي في آيات العقيدة

بدأت السورة بكلمة القارة، وفي هذا تشويق لما بعده، وفيها تناسب مع ما بعدها، وإشارة لأولئك الذين ينكرون البعث من المشركين" تضمنت آياتها الإحدى عشرة آية وصفاً لعقيدة البعث والجزاء التي كذب بها المشركون وأنكروها، وبالغوا في انكارها⁽¹⁵⁾ "الْقَارِعَةُ {1} مَا الْقَارِعَةُ {2} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5} فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ {6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {7} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ {8} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ {9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ {10} نَارٌ حَامِيَةٌ {11}

ج- تناسب المعاني المتقابلة

كالجمع بين ضدين وهو الطباق، وقد ورد ذلك في سورة القارة في مثل: التضاد بين ثقلت، وخفت

د- التقابل في مشاهد النعيم والعذاب

وقد ورد هذا التقابل في سورة القارة وفيه تقابل بين المعنيين المتضادين في مشاهد النعيم، والعذاب في قوله عيشة راضية، وأمه هاءية، فالعيشة الراضية للجنة، ونعيمها، والهاوية المقصودة للنار وعذابها، وهو مشهد من مشاهد النعيم والعذاب التي تعد " من أبرز الموضوعات في القرآن الكريم، والتقابل بينها من أبرز مظاهر التناسب المعنوي في نظمه، وأسلوبه "⁽¹⁶⁾ وهذا جانب من جوانب التناسب في هذا السورة 0

هـ- المناسبة في وحدة النسق واختيار المفردات

وقد بدا ذلك جلياً في اختيار الألفاظ الواردة في السورة، فكل لفظة منها تأخذ مكانها المناسب الذي لا يمكن أن تحل فيه غيرها من الألفاظ، وأول هذه الألفاظ هي مفتتح السورة (القارة) فلفظة القارة لا يصلح أن يحل محلها أي لفظة أخرى، ولو كانت مرادفة لها ووضع كلمة أخرى يخل بالتناسب الواضح في هذه السورة، ولو تأملنا كلمة (الْفَرَاشِ) لأدركنا كيف توحى للقارئ، أو السامع بتلك الصورة المميزة للفراس عندما يتناثر.

2-5- التناسب اللفظي

أ- التكرار في الألفاظ

فقد تكررت لفظة القارة ثلاث مرات متتالية مع اختلاف سياقها، في قوله تعالى "الْقَارِعَةُ {1} مَا الْقَارِعَةُ {2} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} 0 ففي تكرار اللفظة إفادة التعظيم، والتهويل وترسيخ المفهوم والقصد والمراد

ب- تناسب المجاورة والاتباع

" ذكر علماء اللغة أن العرب يحملون اللفظ على ما يجاوره ويغيرون كثيراً من كلامهم عن قوانينه النحوية أو الصرفية للاتباع والمجاورة، كما جرت عادة النحاة أن يعللوا بالمجاورة كثيراً من الظواهر النحوية، قال ابن فارس: للعرب الإتيان وهو أن تتبع الكلمة على وزنها ورومها إشباعاً وتأكيذاً "⁽¹⁷⁾ حيث ورد قوله تعالى: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {7} والمقصود براضية مرضية وفي ذلك

تناسب مع قوله تعالى هاوية وماهية، وحامية، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ {9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ {10} نَارٌ حَامِيَةٌ {11} " وَقَوْلُهُ: فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ، قَالُوا: بِمَعْنَى مُرْضِيَةٍ، وَرَاضِيَةٍ أَصْلُهَا مُرْضِيَةٌ" (18)

ج- التناسب في دقة اختيار الألفاظ

جاءت لفظة الفراش لتعبر عن الحالة أدق تعبير وفيه تناسب مع الحالة التي يكون الناس عليها والفراش معروف بضعف بنيته وقلة حيلته وهذا منطبق على الناس في ذلك اليوم فهم لا يملكون أية قوة، أوحيلة.

وكذلك في اختيار لفظة العهن وهو الصوف لتشبيهه الجبال به فإذا كانت الجبال على صلابتها، وقوتها تكون بهذا الضعف والتناثر كضعف الصوف المندوف المتناثر، والمشتت فكيف بالإنسان في ذلك اليوم، فاللفظة هنا تحمل تناسبا دقيقا .

الدقة في اختيار تركيب ثقلت موازينه، وخفت موازينه فهناك تناسب في الإشارة إلى كثرة العمل، وقلته والميزان هو الحكم في هذا وهو المقياس الأكيد الذي لا يشك فيه ولا يطعن في مصداقيته، فليس هنالك مجاملة، ولا محاباة وإنما هنالك موازين دقيقة لا تظلم أحدا .

وصف النار بلفظة الحامية وهو تأكيد على أن تلك النار تحمل صفة الحرارة لأن الله قادر على أن يجعلها باردة كما حدث مع خليل الله إبراهيم: (قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، ففي هذه اللفظة تناسب واضح وجلي).

د- الحذف والتناسب

إن " من أهم أحوال التركيب اللغوي التي تتصل بالتناسب في النظم القرآني أسلوب الحذف والذكر والحذف ظاهرة أسلوبية بارزة في الكلام العربي تناولها النحاة، واللغويون، والبيانون، ونوهوا بقيمتها البيانية " (19) كسيبويه، وابن جني، وأبو الحسن الرماني، وحازم القرطاجني، وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم، ولو تأملنا في سورة القارعة لوجدنا الحذف بطريقة ما يسمى بالاحتباك (20) وهو ما يتضح في قوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} حيث حذف من الأول (فأمة الجنة) وذكر فيها {عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ} وحذف من الآية الثانية (فهو في عيشة ساخطة) وذكر {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} فحذف من كلٍ نظير ما أثبتته في الآخر، وهو من المحسنات البديعية. (21)

3-5 - التناسب الصوتي، المقاطع والفواصل

أ- من حيث الحروف

الحروف متلائمة، فلا تقارب شديد ولا تباعد شديد يدعو إلى تنافر حروف الكلمات بل إنها في أعلى طبقات التناسب والملاءمة فهي واجبة الحسن " والحسن في المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة. وذلك أن الأصوات لها كميّات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك. والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن. " (22) ، ومن ذلك التقارب بين حرفي الهاء في قوله تعالى : (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) {9} فعلى الرغم من الحرفين من مخرج واحد إلا أنهما لم يسببا ثقلا في النطق ويرجع ذلك إلى أن الحرفين متحركان بحركتين مختلفتين وهما الضمة والفتحة مما ينتج عنه خفة في النطق وسلاسة ، ويسمى التماثل الكبير ويجب فيه الإظهار.

ب- التناسب بين المعنى والإيقاع الصوتي

عند التأمل لسورة القارة نجد كلمات معبرة بإيقاع صوتي مناسب ليس فيه تكلف ولا استكراه بل إن نبرة الصوت في كل كلمة تتناسب مع ما قبلها وما بعدها دون إخلال بالمعنى المراد، أو بمضمون القول {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} {5}

ج- التناسب في تأليف المقاطع

حيث وردت المقاطع مرتبة متوالية على نسق معين يؤدي إلى حدوث الإيقاع الداخلي مما ينتج عنه حلاوة نابعة من التناسب في تأليف تلك المقاطع ، كما أن ورودها على هيئة مقاطع طويلة وقصيرة وزائدة بطريقة متناوبة متناسبة أعطاها روعة صوتية تلذ لها الأذن، كل أولئك من غير تكلف أو اعتساف أو غرابة أو ابتذال فتعالى القائل .

إن " ترتيب المقاطع الصوتية في نظم الآيات يعد من مصادر حلاوة الإيقاع القرآني؛ لأنه ترتيب يقوم على مبدأ التناسب، ولعل هذا التناسب الإيقاعي هو الذي يمكن المرتلين من ترتيل القرآن بهذه الأنغام العذبة التي تهز نفوس المستمعين " (23)

د- التناسب بين المعاني وترتيب المقاطع

جميع المقاطع تنتهي بحرف متحرك من غير مد ومقاطع، وهي توجي بشيء من الانفعال والتوجس والانتظار والتعجل في معرفة منتهى القول، بينما تستخدم المقاطع الممدودة للتعبير عن حالة من الوصف غير المتوتر ، وقد ورد النوعان في سورة القارة على النحو التالي :

المقاطع المنتهية بحروف غير ممدودة نلاحظها في مطلع السورة وفي خاتمتها ، فاللحظة لحظة توتر وصراع نفسي حيث نفسية المتلقي مشدودة مذهولة حين تسمع اسم القارة لذا جاءت القارة {1} متحركة وحيث أن لا وقت للانتظار لزم الوصل مع ما بعدها فجاء السؤال بعدها مباشرة: مَا الْقَارِعَةُ {2} وهنا يكون الوقوف للاستراحة والتطلع لجواب السؤال فتكون حالة المتلقي أقل توترا من قبل؛ لأنه ينتظر جواب السؤال، فيبدأ سؤال آخر وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} فيتكرر اسم القارة للمرة الثالثة لكن الجواب بعد ذلك ووصف حالة القارة يناسبه انتهاء بالمد الذي يوجي بشيء من التأمل والتبصر للمشهد الهادئ لأحوال القيامة وإعمال الخيال لتصور الحالة التي يكون فيها الناس مثل الفراش والجبال مثل الصوف يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5} ويستمر الهدوء عند ذكر حال الفائزين أصحاب الموازين الثقيلة بالأعمال الحسنة، وما أعد الله لهم من جزاء

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ {6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {7} ويبدأ الصوت هنا بالارتفاع بطريقة تناسبية وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ {8} فيعود التوتر النفسي وانتظار ما بعد ذلك وتشدد النبرة الصوتية بكلمات كتلك التي بدأت بها السورة تحمل الإثارة، والتوتر والخوف لدى المتلقي بكلماتها القوية والصادمة فتصور انفعالات حادة وحركات عنيفة ، وسرعة في الأحداث وكأننا نسمع انقطاع نفس المتلقي مع هاء السكت في آخر كل مقطع من المقاطع الثلاثة الأخيرة ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ {9} وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ {10} نَارٌ حَامِيَةٌ {11}

هـ- التوازن وتناسب المقدار

وهذا نلاحظه في تسلسل الآيات، حيث نجد تناسبا ما بين الثلاث الآيات الأولى ، فهناك تناسب بين الآيتين الأولى والثانية بوصفها مقطع الْقَارِعَةُ {1} مَا الْقَارِعَةُ {2} والثالثة بوصفها مقطع متوازن مع ما قبلها، وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ {3} ثم نلاحظ التوازن، وتناسب المقدار بين الآيتين الرابعة، والخامسة يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5} وتناسب ما بين الآيتين السادسة والسابعة فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ {6} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ {7} ويستمر التناسب ما بين الآية

الثامنة والآية السادسة قبلها في العملية التوازنية التي تحمل المقارنة ما بين الحالة، وضدها فيوأمًا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ {8} والتناسق أيضا ما بين الآية التاسعة والحادية عشرة، فالحادية عشرة تفسير للآية التاسعة، والفاصلة بينهما لزيادة التهويل، والتعظيم لشان هذه النار فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ {9} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ {10} نَارٌ حَامِيَةٌ {11}، وفي ذلك كله من الجمال الصوتي والنبهة المتناسبة ما لا يخفى على ذي سمع .

و- تناسب الفواصل

الفاصلة " وتسمى رؤوس الآيات قيل: هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقريئة السجع " (24) وقد وردت في الأحرف الثلاثة الأخيرة من الآيات الثلاث الأولى كما وردت في الأحرف الثلاثة الأخيرة من الآيات الثلاث الأخيرة ، " وللفاصلة في نظم القرآن قيمة هامة تفوق قيمة القافية في الشعر ، بل لعلها أهم عنصر في قواعد التشكل الإيقاعي لهذا الكتاب المعجز " (25)

ز- تناسب الفواصل واختيار الألفاظ

والملاحظ في فواصل السورة التناسب الذي يجعلها تفي بحق المعنى، وحق التناسب الإيقاعي، وهذه واضحة جلية في آيات سورة القارعة، وإن اختلفت الفاصلة بقي التناسب الإيقاعي جليا حتى مع اختلاف الألفاظ كتناسق المبثوث مع المنفوش مع اختلاف حروفهما، في قوله تَعَالَى يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ {4} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ {5}

ح- إقامة صيغة مقام أخرى للتناسب

كإقامة فاعل مكان مفعول: كإقامة رَاضِيَةٍ مكان مرضية كون اسم الفاعل راضية تعني مرضية التي هي اسم مفعول.

6- خاتمة

وبعد فإن ما سبق محاولة للوصول إلى بعض أسرار التناسب في هذه السورة الكريمة، والتي تبينت لي من خلال عودتي إلى المراجع التي سبقتني في البحث في موضوع التناسب عامة، إذ قمت بتطبيق ما توصل إليها العلماء في هذا المجال على هذه السورة ثم أعدت النظر، وبالتأمل في آياتها وجميل نسقها، اتضح لي العديد من الرؤى التي طرقت ذهني، حيث تبين ما في هذه السورة من وحدة موضوعية وترابط جلي بين آياتها تتمثل في جوانب التناسب المعنوي، والتناسب اللفظي النظمي، والتناسب الصوتي، وهذا التناسب يجسد إحدى جوانب الإعجاز القرآني، حيث تتكامل المعاني والألفاظ والأصوات لتوصيل رسالة قوية ومؤثرة. وأيضا يعكس حكمة التنزيل، ويؤكد على قدرة القرآن الكريم على مخاطبة العقل والقلب في آن واحد، ومن المؤكد أن كل متأمل في القرآن لا يخرج بعد إطالة النظر إلا وقد اتضحت له بعض أسرار هذا القرآن العظيم الذي لا تنقضي عجائبه .

إحالات البحث

- (1) السيوطي، جلال الدين. عبد الرحمن بن أبي بكر (2002م-1422هـ) تناسق الدرر في تناسب السور = أسرار ترتيب القرآن ، ص 5 ، القاهرة ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع
- (2) الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، تحقيق: محمد أبو الفضل (1376 هـ - 1957 م) إبراهيم الطبعة: الأولى، البرهان في علوم القرآن 1: 35 ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي 0
- (3) أنيس، إبراهيم، وآخرون (1972م) المعجم الوسيط: 2:916، تركيا، إستانبول، المكتبة الإسلامية
- (4) أبو زيد، أحمد. (1992م) التناسب البياني في القرآن دراسة في النظم المعنوي والصوتي. ص 18 الدار البيضاء. المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.
- (5) القزويني الخطيب، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر (2003م - 1424هـ) ط1، الإيضاح في علوم البلاغة ص 260 ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية
- (6) انظر أبو زيد ، أحمد، ص 40
- (7) القرطبي . أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (1384هـ - 1964 م) 20: 164 ط2. الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، القاهرة ، دار الكتب المصرية
- (8) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ابن عاشور 0 محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (1984هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، 30: 509 ، تونس، الدار التونسية للنشر .
- (9) السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله ، (1420هـ - 2000 م) ط1، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان 1: 933، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، ، بيروت ، لبنان ، مؤسسة الرسالة.
- (10) القرطبي، 20: 164
- (11) السامرائي فاضل صالح ، (1428هـ-2007م) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص 198، ط4 ، عمان ، الأردن ، دار عمار.
- (12) المصدر السابق ص 198
- (13) المصدر السابق ص 199
- (14) قطب، سيد ، (1412 هـ) في ظلال القرآن 6: 360 ، ط17 ، بيروت- القاهرة ، دار الشروق .
- (15) الجزائري، أبوبكر، (1424هـ/2003م) أيسر التفاسير 5: 609، ط5، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، مكتبة العلوم والحكم.
- (16) أبو زيد أحمد. التناسب البياني ص 151
- (17) أحمد أبو زيد. التناسب البياني ص 271
- (18) الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني ، (1415 هـ - 1995 م) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن 9: 73 بيروت – لبنان ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع
- (19) المصدر السابق ص 203
- (20) الاحتباك: هو أن يُخَدَفَ من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابلة في الأواخر، ويُخَدَفَ من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل.
- (21) الصابوني، محمد بن علي. (1417 هـ - 1997 م) صفوة التفاسير 3: 270، ط1، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزي.
- (22) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر 1: 536. تحقيق، خليل شحادة، بيروت، دار الفكر.
- (23) أبو زيد، أحمد التناسب البياني ص 316
- (24) أبو زيد، أحمد، التناسب البياني ص 349
- (25) أبو زيد، أحمد التناسب البياني 352

